# شهر الكنافة والقطايف

للأستاذ محمد سيد كيلانى

الكنافة أحب شيء عند الشرقيين، وبخاصة فى شهر رمضان إذ يتسابق الناس فى شرائها والتفنن فى إعدادها وحشوها بالزبيب والصنوبر والجوز والفستق . وإذا أقيمت وليمة فى هذا الشهر المبارك فان الكنافة من غير شك تحتل مكان الصدارة على المائدة، ولذلك يسمى شهر رمضان « شهر الكنافة والقطايف »

أما لفظ كنافة فلم يذكره أحد من أئمة اللغة . ولا نجد فى الألفاظ اللغوية ما يصلح أن يكون مادة لها . فلعلها كلمة يونانية

روى السيوطى عن أبن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار أنه قال « كان معاوية يجوع فى رمضان جوعا شديداً . فشكا ذلك إلى محمد بن آثال الطبيب فاتخذ له الكنافة فكان يأكلها فى السحر فهو أول من اتخذها »

وهذا الخبر يشك فى صحته . وذلك لأن المؤرخين المتقدمين لم يشيروا إليه. ولم يذكر لنا ابن فضل الله المصدر الذى نقل عنه. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الكنافة ليست الطعام الوحيد الذى يدفع به الجوع . وهى ليست علاجا حتى يصفه الطبيب ابن آثال. وكان من الممكن أن يقوم الرقاق مقامها ويسد مسدها . فما رواه ابن فضل الله . فى هذا الموضوع يجب أن يوضع موضع الشك .

ولو عرفت الكنافة منذ عصر معاوية لذكرها الشعراء فيما ذكروا من أطعمة . فقد رأينا الشعراء حتى العصر العباسى الثانى يذكرون القطايف والخبيص والفالوذج وغيرها من أنواع الأطعمة، ولم نر فى شعرهم أثرا للكنافة وهذا دليل واضح على أنهم لم يعرفوها ولم يسمعوا بها .

وقد لاحظت أن الشعراء المصريين كانوا أول من لهج بذكر الكنافة فى أشعارهم وأول من تغنى بها . ومن هؤلاء أبو الحسين الجزار المصرى إذ يقول :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر . وجاد عليها سكر دائم الدر
وتبا لأوقات المخال إنها . تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

فى هذين البيتين نلمح نفسية الشاعر متبرمة ساخطة على أوقات الفقر والضيق التى لا يأكل فيها سوى الخلل: وفى ذكره كلمة « تبا » ما يدل على حالة نفسية خاصة . أما البيت الأول فهو دعاء للكنافة بالسقيا بماء الورد والسكر . وهو يدعو لها لأنه يحبها فهو فى دعائه يعبر عن شعور داخلى نستشف منه الجوع والحرمان .

وكان الفقراء من الشعراء يستهدون الكنافة من الأعيان والموسرين بشعر فيه إلحاح كبير ودعابة مضحكة وفكاهة مطربة . فمن ذلك قول الشاعر المتقدم وهو

أياشرف الدين الذى فيض جوده ... براحته قد أخجل الغيث والبحرا
لئن أعجلت أرض الكنافة إننى ... لأرجولها من سحب راحتك القطرا
فعجل بها جوداً فمالى حاجة ... سواها نباتا فا يثمر الحمد والشكرا

والظاهر أن هذا الصنف من الطعام كان له عند هؤلاء الشعراء المحرومين مكانة لا تدانى . فالشاعر هنا يعهد لطلبه بوصف الممدوح بالكرم ثم يشكو فقره واشتياقه إلى الكنافة . وفى البيت الأخير تتجلى نفسية هذا الشاعر المسكين ، فهو يريد من الممدوح أن يعجل بإهدائه الكنافة . وقد خشى أن يعطيه شيئاً سواها وهو لا يريد غيرها . لذلك قال بان الكنافة وحدها هى التى تستوجب عنده جزيل الشكر وعظيم الثناء .

وكان الشعراء يتغزلون فى الكنافة ويصفون محاسنها وجمالها ويتمنون دوام وصالها ويتألمون لهجرها وفراقها ويشكون من صدها وإعراضها. ونحن نقرأ ما قالوا فى هذا الموضوع فنضحك، ومثال ذلك قول الجزار المتقدم وهو :

ومالى أرى وجه الكنافة مغضبا ... ولولا رضاها لم أود وعضها

---

مجموعة أوقصيدة من شعر صديق المرحوم « أحمد توفيق البرطباطى » إذا لم أجد ديوانه لتكون عماد بحث كله خير وأدب وفائدة فكنت على حد قوله عليه رحمة الله

تعاقدت والأهوال عشرين حجة ... لمن قيام بالأسى وقعود
فلست أبالى بعدها بيلية ... قرى الخطب عزم للعلا وصمود

الكلام بقية — محمد محمود جلول

عجبت لها من رقة كيف أظهرت ... على جفا قد صد عني جفاتها
ترى اتهمتني بالقطايف فاعتدت ... تصد اعتقادا أن قلبي خانها
ومذ قاطعتني ما سمعت كلامها ... لأن لساني لم يخالط لسانها
ألا خبروها أنني وحياتها ... ومن صانها في كل در وزانها
ليقبح أني أجعل الحشو مذهبي ... فأفسد شأني حين يصلح شأنها

فالشاعر هنا يصور لنا افتقاره إلى هذا الصنف من الأطعمة في صورة مضحكة . فقد شخص الكنافة وهي معرضة عنه ، هاجرة له ثم تساءل عن السر في هذه القطيعة وذلك الاعراض أكان ذلك لأنها اتهمته بحب القطايف والجرى من ورائها فاعتبرته خائنا غادرا مجردا من الوفاء ؟ ثم أخذ ينفي عن نفسه هذه التهمة ويتبرأ منها . ويذكر أنه باق على عهده في حبه واخلاصه لها . وأنه لا يفسد هذا الحب بوصل القطايف . وفي البيت الأخير تورية لطيفة في كلمة « الحشو » فهي بمعنى التشبيه والتجسيم والنسبة اليها « حشوى » وهو الذي ينتمي إلى طائفة «الحشوية» المعروفة وهي تشير في نفس الوقت إلى القطايف لأنها تحشى بالفستق والزبيب وغيره .

وهذا شاعر يتألم ويشكو لأنه لم يذق طعم الكنافة ولم ترها عينه الا عند البياع في الدكان . قال :

ما رأت عيني الكنافة إلا ... عند بياعها على الدكان

فما أنفس هذا الشاعر المسكين! وما أحوجه إلى العطف والرثاء !

وشاعر آخر يذكر ليالي الكنافة الخالدة في عمره بالخير فيقول .

ولم أنس ليلات الكنافة، قطرها ... هو الخلو إلا أنه السحب الغر
تجسود على كفي فأهتز فرحة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

فهذه الليالي التي نعم الشاعر فيها بأكل الكنافة اللذيذة باقية في ذاكرته ولن تفارقه مادام حيا . ففي تلك الليالي السعيدة في نظره كان حينما يمسك الكنافة بيده يكاد يجن من شدة الفرح ويهتز من فرط السرور كما يهتز العصفور الذي يبلله القطر .

وانظر إلى قول هذا الشاعر .

إليك اشتياق يا كنافة زائد ... فمالي فيّ عنك ؟ كلا ولا صبر
فما زلت آكلي كل يوم وليلة ... ولا زال منهلا بجرعائك القطر

فهذا تقديس للكنافة ليس بعده تقديس ، ونوع من العبادة لهذا الصنف من الطعام. فالشاعر يعبر عن شوقه الذي لا حد له للكنافة ويذكر أنه لا يطيق فراقها ولا يستطيع عنها صبراً . فهي قبلته التي يتوجه اليها في الغدو والآصال لا يصرفه عنها طعام آخر ولا يلهيه عنها شيء مهما جل وعظم .

ومن الشعراء من وازن بينها وبين القطايف وفضل الكنافة عليها . ومنهم من أظهر الكنافة بمظهر الساخر من القطايف المحتقر لها . ومثال ذلك قول ابن عنين :

غدت الكنافة بالقطايف تسخر ... وتقول اني بالفضيلة أجدر
طويت محاسنها لنشر محاسني ... كم بين ماطوى وآخر ينشر
لحلاوتي تبدو ، وتلك خفية ... وكذا الحلاوة في البوادي أشهر

ففي هذه الأبيات ترى الكنافة تزهو بنفسها وتشمخ بأنفها وتتيه كبراً ودلالا ، وتسخر من القطايف سخرية مرة . وتقول الكنانة هنا إنها أحق بالفضيلة من القطايف لأن محاسن القطايف مطوية وحلاوتها محشوة في جوفها ، وهذا يغض من قدر القطايف في نظر الكنافة التي تمتاز منها بظهور محاسنها وجمالها. فالكنافة متبرجة سافرة تتصدى للناس وتلفت اليها الأنظار بهائها وحسن رواتها فيعرضون عن القطايف ويقبلون عليها . فهي ناجحة في كسب الزبائن بما تثيره فيهم من كامن الشهوة . وهذه ميزات ليست للقطايف .

وكان الشعراء يتبادلون الألغاز في هذا الموضوع . ومثال ذلك ما كتبه أحد الشعراء إلى صديق له وهو :

ياواحدا في عصره بمصره ... ومن له حسن الثناء والسنا
أتعرف اسما فيه ذوق وذكا ... حلو المحيا والجنان والجنى
والحل والعقد له في دسته ... ويجلس الصدر ، وفي الصدر المنى

فأجابه بقوله :

عرفتني الاسم الذي عرفته ... وكاد يخفى سره لولا الكنى
يقصد بالكنا « الكنافة »

هكذا تناول الشعراء الكنافة . وكان شعراء مصر أكثر تناولا لها من غيرهم . وقد أسبغوا على ما نظموه في هذا الموضوع الروح المصري الذي عرف بالخفة والمرح ، وأولع بالفكاهة والدعابة